

اجتهادات بين الاضطراب والاستقرار

هل يرتبط الإبداع بالبيئة التي يعيش فيها المبدع، أو من يملك مقومات تؤهله لأن يكون مبدعاً .. وهل يُعدُّ هذا الارتباط شرطاً لا فكاك منه؟ سؤالٌ اختلف من أجابوا عنه، وخاصة فيما يتعلق بأثر كل من الاضطراب والاستقرار. فهناك من يرى أن الحياة المضطربة تخلق تحدياً يستجيب له المبدع، أو المؤهل للإبداع، فيُفجر طاقاته الإبداعية. وثمة من يعتقد، في المقابل، أن الحياة المستقرة هي أكثر ما يحتاجه المؤهل للإبداع لكي يبدع. غير أنه في كل من التصورين شيء من الحقيقة. يدلنا تاريخُ الفكر على أن التكوين الإبداعي يتباين من شخصٍ إلى آخر، مما يؤدي إلى اختلاف أثر البيئة التي يعيش فيها. خذ مثلاً حالتى المُفكرين الأكثر أهمية وتأثيراً في مرحلة التنوير في أوروبا وهما جان جاك روسو، وإيمانويل كانط. عاش روسو حياة مضطربة منذ طفولته، وفُرض عليه الترحال من بلد إلى آخر ومن مدينة إلى غيرها، فجعله الشقاء أحد أبرز مفكرى التنوير. وساعدته الحدودُ التي كانت مفتوحة في تلك المرحلة على أن يجد ملاذاً جديداً كلما تعرض للخطر، عبر الترحال بين جنيف وباريس وشامبيري والبندقية ولندن. واحتاج في كثير من الحالات

إلى مساعدة أصدقاء، كما حدث مثلاً عندما يَسر له المفكرُ الاسكتلندي دافيد هيوم الانتقال إلى لندن. كانت حياة إيمانويل كانط، على النقيض، مستقرة إلى حد يقترب من الركود. وهذا الاستقرار هو ما أعانه، بحكم تكوينه، على الإبداع الفكري. عاش في بلدة كونسبرج الألمانية، التي احتلتها روسيا السوفيتية في نهاية الحرب الثانية وأطلقت عليها كاليينجراد. لم يغادرها طوال حياته، وعاش فيها حياة توصف بأنها كانت غاية في الهدوء والوداعة، وشديدة النظام إلى حد أن جيرانه كانوا يضبطون ساعاتهم عندما يخرج للتريض في وقت لم يتغير أبداً، حسب ما رواه برتراند راسل في كتابه المبكر مسائل الفلسفة، إلا عندما كان يقرأ أحد كتب روسو الذي أثر في تفكيره أكثر من أي مفكر تنويري آخر. وهكذا أنتجت حياة روسو المضطربة وحياة كانط المستقرة أهم مفكري عصر التنوير قاطبة.